الفصل الثاني

١- المجاز في القرآن الكريم

دراسة تحليلية حول نص مختار من سورة البقرة

● النص :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ۝١٦ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة:٦-٢٠).

● عرض سريع :

في هذه الآيات يتحدث القرآن عن طائفتين من الناس : طائفة كافرة، وأخرى جمعت إلى الكفر النفاق ، وفي حديثه عن كل من الطائفتين ذكر أوصافها ، وأسباب تلك الأوصاف وجزاءها المدخر لها في الآخرة .

ففي الآية الأولى من النص الحكيم إجمال للحديث عن الكافرين ، وفي الآية الثانية تفصيل موجز لقصتهم ، وفي الآية الثانية عشرة مثل مضروب لهم ، ثم حكم عليهم في الآية الثانية عشرة .

أما قصة المنافقين فتبدأ بالآية الثالثة من النص الحكيم، حتى الحادية عشرة، وعندها يُسدل الستار قليلاً ليبرز أمامنا مثل الكافرين في الآية الثانية عشرة وما بعدها وبهما ينتهي الحديث عن الكافرين ، ويُرفع الستار مرة أخرى عن طائفة المنافقين ، ليضرب لهم ـ أيضًا ـ مثلاً موضحًا وكاشفًا لحقيقتهم وبهذا ينتهي الحديث عن الطائفتين[1] .

وفي كِلا الموضعين ـ الكافرين والمنافقين ـ كان حديث القرآن مفصَّلاً بحكمة ، ومقدَّرًا بمقدار .

أولاً : في شأن الكافرين

وقد حصر القرآن شأنهم في البقاء على الكفر والعناد مهما دعوا وأنذروا ، هذا الشأن يصوره القرآن في عبارات وجيزة ذات براعة في التصوير ، وقوة في التأثير .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة:٦،٧) .

---

١١) في جعل المثل الأول للكافرين والثاني للمنافقين مسايرة منا للدكتور محمد عبد الله دراز إذ هو صاحب هذا الرأي ، وقد خالف به ما أجمع عليه المفسرون وسنفصل هذا بعد قليل .

فقد جاء الحكم مؤكدًا بـ « إن» ، وآثر التعبير عنهم بالموصول ليمكن وصفهم بالذي استحقوا عليه العقاب في الصلة ، كما أن اسمية الجملة مفيدة أيضًا للتأكيد ، وعبَّر عن الإنذار بالفعل ليفيد فائدة لم يكن لتحصل لو عبَّر عنها بالاسم ، لأن الأصل : سواء عليهم إنذارك وعدم إنذارك ، أو إنذارك وعدم إنذارك سواء عليهم .

● **لماذا يستخدم القرآن المصدر المؤول :**

والجواب : إن المصدر المؤول أو الفعل يتيح صلاحية الكلام لإفادة اعتبارات من شأنها أن تقوى المعنى أو تجعله أنسب المقام ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا ﴾ (العنكبوت:٥١) ، والتقدير : أو لم يكفهم إنزالنا ، وقد رأينا أن المصدر المؤول جعل الكلام صالحًا لدخول حرف التوكيد على الجملة ، كما أن اعتبار التجدد والحدوث المستفاد من الفعل هنا مطلوب .

وقال في سورة البقرة : ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (البقرة:١٨٤) ، بدل «صيامكم» ، لأن الاستقبال مع التجدد والحدوث داخل في الاعتبار هنا : إذ المقام مقام بيان حكم شرعي إنما يطاع ويمتثل بعد ثبوت التشريع .

وقال في سورة يوسف : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْأَيَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (يوسف:٣٥) فإن الذوق يحكم بأن فاعل «بدا» هنا ، هو المصدر المتصيَّد من الفعل وتقديره : بدا لهم سجنه ، وإنما وضع الفعل : «ليسجننه» بدله لأنه أتاح دخول التوكيد القسمي والتوكيد بـ«النون» على الفعل وهذا يكشف لنا أن أمر سجن يوسف قد بدا لهم بداءً مؤكدًا لا بديل له ، ولو وُضِع الاسم بدل الفعل لفاتت هذه الاعتبارات .

وقد عبَّر عن فساد القلوب بالختم عليها ، وكذلك الأسماع ، أما الأبصار فحيث لم يهتدوا إلى الصواب عن طريقها وعموا عن الدلائل والآيات . فقد عبَّر عن هذا بالغشاء الذي يُجعل على الأبصار فيحجب عنها الرؤية الصالحة.

يقول الزمخشري موجهًا ذلك : « فالختم والكتم أخوان ، لأن في الاستيثاق من الشيء يضرب الخاتم عليه ، كتمانه وتغطيه لئلا يتوصل إليه ولا يطلع عليه »[1] .

« والغشاوة : الغطاء ـ فعالة من غشاه إذا غطاه ـ فإن قلت : ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار ؟ . قلت : لا ختم ولا تغشية ثَمَّ على الحقيقة ، وإنما هو من باب المجاز ، ويُحتمل أن يكون من كِلا نوعيه ، وهما الاستعارة والتمثيل » .

وحاصل كلامه أن لنا اعتبارين في تحليل هذا المجاز .

إما أن نعتبر الختم والتغشية كُلاًّ منهما استعارة مفرد لمفرد ، على طريق التصريحية التبعية في الختم والتصريحية الأصلية في التغشية .

وإما أن نعتبر الكلام كله ، استعارة تمثيلية لهيئة بهيئة ، وكلا المعنيين حسن ، وإن كان الذوق يميل إلى اعتبار المجاز المفرد فيها دون المركب .

وقد أبى الزمخشري إسناد الختم إلى « الله » على الحقيقة ، متأثرًا بمذهبه الاعتزالي الذي لا يجيز إسناد أفعال القُبح إلى الله ، ولذلك جعله من المجاز العقلي ، والفاعل الأصلي هو الشيطان ، أما إسناده إلى « الله » فلأنه أقدر الشيطان عليه ، والعلاقة ـ إذن ـ هي السببية[2] ، وقد رأى هذا الرأي في غير هذا الموضع .

وقد تناول القرآن هذه الحواس الثلاث : « القلوب ـ الأسماع ـ الأبصار » عند حديثه عن الكافرين في أساليب متنوعة ، ومواضع مختلفة تفيد في جملتها : أن وجود هذه الوسائل لانعدام أثرها النافع فيهم كعدم وجودها ، وكثرت في هذه الأساليب استعارة « ختم » للدلالة على هذا المعنى ، قال في الجاثية :

(١، ٢) تفسير الكشاف للزمخشري : جـ ١ .

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ (الجاثية:٢٣) .

● **مقارنة سريعة :**

ولنا أن نقارن بين صورة المجاز في هذه الآية ، وبين صوره في آية «البقرة». فالحال هنا هو الحال هناك : كفر وعناد ، وهناك ختم على القلوب والأسماع ، وغشاوة على الأبصار ، وهنا ـ كذلك ختم وغشاوة ، فالآيتان متفقتان في رسم الإطار العام للمعنى مختلفتان في دقائق التعبير .

ففي آية «البقرة» القلوب مقدَّمة على السمع،وهنا السمع مقدَّم على القلب، وهنا أيضًا تصريح بنسبة جعل الغشاوة على البصر ، وهناك ترك لذلك التصريح اكتفاءً بذِكر الجار والمجرور .

فما السر إذن ؟

لعل السر في ذلك أن في آية «البقرة» مجرد إخبار عن حال الكافرين عامة فهم لا تثمر فيهم بشارة ولا يخيفهم إنذار .. من أجل ذلك لم يهيئ الله لهم أسباب الهداية ، لعدم استعدادهم لذلك .

أما في آية «الجاثية» فعرض لنموذج معيَّن فريد من جنسه ، وقصد إلى نوع ألد خصومة وأبعد ضلالاً ، يشعر بذلك أن صدر الآية فيه لفت قوي إلى تأمل حال هذا النوع : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ .. هذه واحدة .

﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ .. وهذه ثانية

﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ ﴾ .. وهذه ثالثة .

﴿ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ .. وهذه رابعة .

فهو لانغماسه في هواه لم يعر دعوة الحق أدنى اهتمام ، فهو عنها في صمم ، فجدير بقلبه أن يُختم ما دام لم يصل إليه عن طريق السمع توجيه مفيد ، فلم يسمع ، ولم يع ، ولم ير شيئًا غير شهواته وملاهيه .

وقال في سورة الأنعام : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ (الأنعام:٤٦) .. وظاهر أن هذه الآية مسوقة في مقام التهديد والوعيد وهو مقام قوة وعنف ، ولهذا جاءت الاستعارة هنا مناسبة للمقام لما فيها من قوة وعنف ، ففي الآيات السابقة كان كل من السمع والبصر موجودًا ، لكنهما مئوفان ، وفي هذه الآية السمع والبصر مأخوذان من أصلهما ، حتى ليخيل إلى المتأمل في هذه الصورة أنها تمثل أناسًا غريبي الخِلْقة ليس لهم حاسة سمع ولا حاسة بصر !

والقلوب مع هذه مختوم عليها ، فماذا بقي فيهم من وسائل النفع ؟

لا شيء .. إذن فلا خير في بقائهم ولا أسف على هلاكهم .

● **صمت وكلام :**

وصورة أخرى من صور الحشر ، يحكيها القرآن عن الكافرين حينما يأتون يوم القيامة يريدون أن يجادلوا عن أنفسهم ، فإذا هموا بالاعتذار فقدوا النطق وهنا نرى كلمة « ختم » تفارق مكانها السابق ـ القلوب والأسماع ـ وتقفز قفزة سريعة لتجثم فوق الأفواه : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ (يس:٦٥) .

﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (يس:٦٣،٦٤) .

الأفواه هنا أحكم ختمها ، لماذا ؟ لأنهم همُّوا بالكلام مجادلين ومعتذرين ، فدحضوا وفقدوا كل حُجَّة للدفاع عن أنفسهم ، وهنا تأتي مفاجأة لم تكن في الحسبان لحظة : ﴿ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

(يس:٦٥).

يا سبحان الله .. أرادوا الكلام من حيث عهدوا ليدفعوا عن أنفسهم العذاب فما استطاعوا ، وتكلم منهم ما ليس بمتكلم لإحلال العذاب عليهم ..

من هذه النصوص نرى أن القرآن يستعير كلمة « ختم » إذا كانت فعلاً ماضيًا أو مضارعًا ، ويجعلها صفة لقلوب الذين كفروا فلم يفقهوا شيئًا .

● «طبع» و«ختم» أختان :

وقد فسَّر المفسِّرون ومنهم الزمخشري «ختم» : بطبع لإفادة نفس المعنى ، ومن العجيب أن كلمة «طبع» قد استخدمها القرآن مستعارة لهذا المعنى ، وجاءت كذلك في إحدى عشرة آية ، وهي :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(النساء:١٥٥) .

﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

(التوبة:٨٧).

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة:٩٣) .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (الأعراف:١٠٠) .

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٠١) .

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (النحل:١٠٨).

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (يونس:٧٤) .

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم:٥٩) .

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (غافر:٣٥) .

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ (محمد:١٦) .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

(المنافقون:٣) .

● وصف جامع :

وبالنظر في هذه الآيات جميعًا يتضح لنا أن القرآن استخدم مادتي : « ختم » و« طبع » ، في مواضع متعددة يشملها وصف واحد هو أن هاتين الكلمتين تفيدان في هذه النصوص إعراض مَن وقعت في سياق الحديث عنهم عن قبول الإيمان ، وأن القرآن يقرن بهما في كل موضع جاءتا فيه وصفًا يفيد نفي العلم النافع عنهم ، أو وصفًا يُشعر بذمهم وسوء مصيرهم ، وهذا المعنى يؤدي بنفي العلم صراحة في بعض المواضع ، وفي بعضها يؤدي بنفي ما يُفهم منه نفي العِلم .

هذا قياس مطرد نجده في كل النصوص الواردة في هذا الشأن ، لِمَ لَمْ يتخلف منها واحد ؟

ففي آية « البقرة » خُتمت الآية بوصف صريح في ذمهم ومصيرهم السيئ : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ ﴾ (البقرة:١٠) .

وآية « الجاثية » قرنت الآية بعدة أوصاف لإفادة معنى الذم ، وفي آية « الأعراف » كذلك : ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ (الأنعام:٤٦) .

● تفرقة عجيبة :

وباستقراء استعمال القرآن لهذه المادة : « ختم » نجد استعمالاتها إذا كانت فعلاً مقصورة على مواضع الذم ، متضمنًا السياق الذي هي فيه وصفًا يُشعر بذلك الذم متقدمًا عليها أو متأخرًا عنها ، وقد سبق شرح هذه الظاهرة العجيبة.

أما إذا كانت اسمًا فإنها تختص في هذه الحالة بمواضع المدح ، وقد جاءت ـ كذلك ـ في سورتين ، إحداهما : سورة الأحزاب في قوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾(الأحزاب:٤٠)[1]،

---

(١) وختم النبوة : أي تممها بختمه ، مفردات القرآن للراغب الأصفهاني .

وقد أجمع العلماء على أن ختم الرسل بمحمد عليه السلام وصف شامل لفضائل التعظيم اختص الله به محمدًا عليه السلام .

والثانية : سورة المطففين : ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ (المطففين:٢٥،٢٦) .

وهذه خاصة من خصائص الأسلوب القرآني إذ يفرِّق بين استعمالات الكلمة الواحدة فيطرد استعمالها على صورة معينة في موضع ويطرد صورة أو صورًا أخرى من استعمالاتها أيضًا في موضع آخر .

أما مادة «طبع» فقد استعملت كذلك في معنى الذم ، وقرن استعمالها في كل موضع بوصف مشعر بذلك الذم ، على أن الغالب في الوصف هنا أن يكون بنفي العِلم أو الإيمان ، أو ما يؤدي إلى نفي العِلم بطريق التجوز في الكلام .

فآيتا «التوبة» اللتان ذكرناهما آنفًا ، إحداهما فيها نفي العلم صراحة : ﴿ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، والثانية تنفي عنهم «الفقه» الذي هو أخص من العلم : ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ، وآية «النساء» تنفي عنهم العلم صراحة ..

أما آيتا سورة «الأعراف» فإحداهما تصريح بنفي «السمع : ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ وهذا يتضمن نفي العلم عن طريق المجاز المرسل الذي علاقته السببية ، لأن السمع سبب في «العلم» إذ هو وسيلته ، والثانية تُصرِّح بنفي الإيمان : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ﴾ ، وفي نفي الإيمان نفي للعلم النافع عن طريق المجاز المرسل الذي علاقته السببية ، لأن السمع سبب في العِلم إذ هو وسيلته ، ولأن الإيمان سبب عن العِلم الذي يهدي إلى النظر والتأمل وينتهي إلى الإيمان المدعم بالدليل .

وتدل آية سورة «يونس» على نفي الإيمان كذلك : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ﴾ .

أما آية سورة «الروم» فتنص على نفي العلم صراحة : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وفي آية «النحل» إثبات الغفلة لهم أمر يستدعى ـ بداهة ـ سلب العلم عنهم : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ مع تقرير المعنى بتعريف الطرفين وتوسط ضمير الفصل بينهما ، وهذا يفيد القصر والتوكيد .

وتعود آية «المنافقين» إلى نفي الفقه ، كما سبق في إحدى آيتي «التوبة»: ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ، وفي «غافر» نجد ذلك الوصف : ﴿ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ وهما خلتان ذميمتان ، لا يتصف بهما إلا جاهل أو من في حكمه ، وفي آية «محمد» كان اتباع الهوى هو الوصف اللازم لهذا الفريق والمتبع الهوى حقير ذليل .

● **منهج القرآن في «طبع» و«ختم» :**

فهذه سُنَّة القرآن فقد اتبع كل تصوير مجازي لمادة «طبع» ـ بعد التزامه ورودها في مواضع الذم ـ وصفًا مؤكدًا للمعنى ومشعرًا به ، وهذه الأوصاف مهما تباينت طرقها فإنها لا تخرج عن تسجيل أشنع ألوان الذم لهؤلاء المذكورين .

ولنا أن نسجل ـ هنا ـ في اطمئنان ، أن هاتين المادين «ختم» و«طبع» مادتا مجاز في القرآن ، مع التزام «طبع» في مواضع الذم ، و«ختم» كذلك إذا كانت فعلاً ، فإن كانت اسمًا فهي للمدح لا غير .

● **«ربط» تنافي «ختم» و«طبع» :**

من بديع القول أن القرآن حين التزم ـ على النحو الذي أبناه ـ استخدام مادتي «ختم» و«طبع» للدلالة على فساد القلوب ، فإنه التزم مادة «ربط» للدلالة على صيانة القلوب من الفساد ، وذلك في مواضع ثلاثة :

الأول في أهل بدر : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ (الأنفال:١١) .

وقال في شأن أهل الكهف مادحًا : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ﴾ (الكهف:١٤) .

وقال في شأن أم موسى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(القصص:١٠) .

في المواضع الثلاثة السابقة استخدم القرآن مادة «ربط» فعلاً في معنى المدح ، على العكس من «ختم» و«طبع» .

وكذلك إذا كانت اسمًا .. قال سبحانه : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال:٦٠).

وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران:٢٠٠) .

في المواضع الثلاثة الأولى جاءت الكلمة ـ فعلاً ـ فأفادت حفظ القلوب من الفساد وبقاءها على الإيمان والثبات .

وفي الموضعين الرابع والخامس وردت المادة في مقام الجهاد ، اسمًا في الأولى ، وفعلاً في الثانية ، وذلك كله في مقام المدح والثناء .

وهي في المواضع الثلاثة الأولى جاءت على طريق المجاز ، استعارة تصريحية تبعية ، ويمكن حملها على المجاز المركب ـ كما سبق ـ عن الزمخشري في توجيه المجاز في «ختم» .

كما يلاحَظ أن الاستعمال المجازي هنا ـ بل وغير المجازي ـ مصحوب بوصف يؤكد المعنى ويقويه وقد سبق نظيره في مادتي «طبع» و«ختم» .

ثانيًا : في شأن المنافقين

أما المنافقون ـ فقد بدأ الله قصتهم بمطلع جميل : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة:٨) .

وطائفة المنافقين معقدة الأحوال ، لها ظاهر طيب ، وباطن خبيث .

ولهذا سلك القرآن في حديثه عنهم مسلكًا فيه شيء من تفصيل إذا ما قيس بحديثه عن طائفة الكافرين ، فقد جاء حديثهم في إحدى عشرة آية من نص بلغت جملة آياته خمس عشرة آية .

وقد اشتمل حديث القرآن عنهم على صور من المجاز والمعاني والبديع..

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾

(البقرة:٨).

تشتمل هذه الآية على صغرها على إجمال قصة الكافرين ، وتحتوي على أصول القضية وفروعها وإثبات الإيمان في صدر الآية حسب مدعاهم ونفيه عنهم في عجزها ، حسب علم الله بهم ، يمثل عند البلغاء ما يسمونه طباق السلب ، وأثره في جمال الأسلوب واضح .

وقد ذكر الله في الرد عليهم : ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ غير معد الوصف بـ« مؤمنين» إلى معمول ، فما هم بمؤمنين بالله ولا باليوم الآخر ، وذكرهما في الدعوة أغنى عن ذكرهما في الرد عليها ، كما نلاحظ دخول حرف الجر على الوصف وحقه ألا يدخل عليه ، وذكره مفيد لتأكيد النسبة ، لينفي عنهم ـ نفيًا مؤكدًا ـ ما أرادوا أن يروجوه عنهم رواجًا مؤكدًا ، وبهذا تعادلت كفتا الميزان .

ثم لننظر إلى دقة التعبير القرآني ، إنه قال : ﴿ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا ﴾ ولم يقل : « ومن الناس من آمن بالله» لأن القول غير الإيمان ، ولو كان كذلك لما جاز نفيه وإلا أدى إلى تناقض يحتاج إلى تحرج بعيد ، فكل لفظة فيه موضوعة بحساب .

﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

(البقرة:٩) .

هذا شروع في تفصيل قصة المنافقين و« الخدع» أن يوهم صاحبه خلاف

ما يريد به من المكروه من قولهم : ضب خادع ، إذا أمَرَّ الحارس يده على باب جحره أوهمه إقباله عليه ثم خرج من باب آخر[1] .

فكيف جاز ـ إذن ـ إطلاقه على الله ، وهو العليم الخبير ؟

● **الخداع في جانب الله :**

يجيب على ذلك صاحب المفردات فيذكر قوله تعالى : ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ ثم قال : «أي يخادعون رسول الله وأولياءه» ، ونسب ذلك إلى الله تعالى من حيث أن معاملة الرسول كمعاملته ، ولذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ (الفتح:١٠) ، وجعل ذلك خداعًا تفظيعًا لفعلهم وتنبيهًا على عِظَمِ الرسول وعِظَمِ أوليائه ، وقول أهل اللغة : إن هذا على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه فيجب أن يُعلم أن المقصود بمثله في الحذف لا يحصل لو أتى بالمضاف المحذوف لما ذكرنا من التنبيه على أمرين :

أحدهما : فظاعة فعلهم فيما تحروه من اللفظ معه ، وأنهم بمخادعتهم إياه يخادعون الله .

وثانيهما : التنبيه على عظمة المقصود بالخداع وأن معاملته كمعاملة الله .

ويرى الزمخشري[2] أن هذا مجاز عند البيانيين لأنهم تعاطوا ـ أي المنافقين حسب ظنهم ـ أفعال المخادع ، والدليل عليه صدق نفيه في عجز الآية : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ .. مجاز استعاري كذلك لأن المراء لا يخدع نفسه ، وإنما سمى إضرارهم أنفسهم «خداعًا» حيث كانوا لا يشعرون بأن في عملهم هذا ما يعود عليهم بالضرر ، وقد حسن من موقع المجاز هنا مشاكلته للمجاز الأول بلفظه ومعناه .

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني : ١/١٤٣ ، ١٤٤ .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري : ١/١٤٤ (بتصرف) .

وليس ضرر المنافقين بواقع على أحد ، وإنما هو واقع بهم ، وهذا المعنى أفاده القصر في الآية الذي طريقه النفي والإثبات .

ولهذه المادة « خدع » مواضع في القرآن جاءت في واحد منها على معناها اللغوي ، وجاءت في بقية المواضع على طريق المجاز منها الاثنان اللذان في آيتنا هذه ، وقد وضح المجاز فيهما ، أما المواضع الأخرى فهي : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ (النساء:١٤٢).

فخداعهم لله مجاز تقدَّم الوجه فيه ، أما خداع الله لهم فمجاز ـ كذلك ـ لأن الخداع الحقيقي يوهم ـ هنا ـ أن المخادع يعجز عن المكافحة وإظهار المكتوم ، مع أن الله تعالى قادر على هتك سترهم وإنزال العذاب بهم ولا حَرَج عليه ، ولكن حيث وضع فعل الله بهم مقابلاً لِما توهموه خداعًا لله ، سمى جزاؤه لهم خداعًا ، فهو كقوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ (البقرة:١٣٨) .

● ولكن ما خداع الله لهم ؟

رأي يقول : إن ذلك من حيث تجري عليهم أحكام المسلمين من حيث الظاهر مع أن الله توعدهم وعيدًا شديدًا .. وهذا رأي صائب .

ولكن لماذا لا يراد بذلك إنعام الله عليهم وتقلبهم في مظاهر النعيم يسومون فيها كما تسوم الأنعام ، ومصيرهم في الآخرة النار : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (النساء:١٤٥) .

● توجيه جديد للآية :

ولنا في الآية ملحظ .. ذلك أن الله عبَّر في جانب المنافقين بفعل رباعي : « يخادعون » إذ أصله : خادع ، وهذا يقتضي مفاعلة بين طرفين مخادِع ومخادَع[1] .

---

(١) مخادِع ومخادَع : بكسر الدال في الأولى ، وفتحها في الثانية .

وفي جانب الذات العلية عبَّر بوصف من فعل ثلاثي لا مفاعلة فيه : « خادعهم» من خدع .. فما السر إذن ؟

أرى ـ والله أعلم ـ أن الفعل : « يخادعون» ، على حسب تصورهم أن الله مخادع أمام ألاعيبهم ـ فهنا طرفان من حيث الظاهر .

أما في جانب الله ، فإن فعله سبحانه موجَّه إليهم لا على سبيل الخداع وإنما هو فعل واقع من قوى لا يخشى شيئًا ، على ضعيف يخشى كل شيء .

فليس ـ هنا ـ مخادعة كاملة الأطراف ، ولذلك خولف في الموضعين بين صيغ العبارة ... ودليلي على ذلك القرآن نفسه .

فإن في آية « البقرة» قال : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ (البقرة:٩) .. فهنا طرفان : مخادِع ـ وهم المنافقون ـ ومخادَع ـ وهم الذين آمنوا ، فجاء الفعل « يخادعون» من « خادع» المقتضى للمفاعلة بين طرفين .

وعندما بيَّن أن هذا الخداع غير موجَّه إلا إليهم أنفسهم جاء الفعل : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ ، من « خدع» الثلاثي الذي لا مفاعلة فيه ، لأنه ليس هنا طرفان بل طرف واحد ، وإن صح هذا فذلك من دقة التعبير في هذا الكتاب المعجز .

قال الراغب في : ﴿ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ : معناه مجازيهم بالخداع[1] .

وقال سبحانه : ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ﴾ (الأنفال:٦٢) .. والكلمة هنا واردة على المعنى اللغوي لا مجاز فيها .. وقال : « يخدعوك» دون « يخادعوك» لأن الله حسبه فهو ليس موضع مخادعة ـ أعني محمدًا ﷺ ـ فلم يكن للخداع طرفان فجيء به من فعل لا يقتضي المفاعلة ، وهذا جار على النهج الذي أبناه آنفًا .

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ٤٦٩ .

● «النفاق» .. كلمة مدنية :

والخلاصة : أن هذه المادة «خدع» لم يستعملها القرآن إلا في سياق الحديث عن المنافقين .

فهي - إذن - كلمة مدنية لا عهد للقرآن بها في مكة ، فالبقرة والنساء والأنفال سور مدنية ، وهي السور التي وردت فيها هذه المادة[1] .

وهي أيضًا في القرآن مادة مجاز ، لأنها لم ترد على وجه الحقيقة إلا في موضع واحد وهو آية «الأنفال» ، أما في آيتي البقرة والنساء فقد جاءت على طريق المجاز الاستعاري .

● دور المرض في المجاز :

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ (البقرة:١٠) .

استعمال المرض في القلوب يكون حقيقة ، ويكون مجازًا ، فيكون حقيقة إذا أصابها مرض جعلها عاجزة عن أداء واجبها نحو الجسم من تغذيته بالدم وتنقيته من الشوائب .

ويكون مجازًا للدلالة على فساد المعتقَد والحقد والحسد وما أشبه ذلك من الأمراض التي لا تعلق لها بصحة الأجسام .

والقلب الخالي من هذه الأمراض المجازية قد استعار له القرآن كلمة «سليم» من «السلامة» ضد المعنى الأول ، فقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء:٨٨،٨٩) .

قال الراغب : المرض الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان وذلك ضربان:

الأول : مرض جسمي وهو المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ (الفتح:١٧) .

---

(١) يمكن أن تضاف هذه السمة إلى القرآن المدني .

الثاني : عبارة عن الرذائل كالجهل والجبن والبخل والنفاق .. وغيرها من الرذائل الخلقية نحو قوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [1] .

فالمراد بالمرض الذي في القلوب هو الكفر والنفاق ، وهذا على سبيل المجاز الاستعاري ، والاستعارة فيه تصريحية أصلية ، ويذكر الراغب سبب تشبيه الكفر وغيرهما بالمرض ويرجع ذلك لما يأتي :

إما لأنها مانعة من إدراك الفضائل كالمرض المانع للبدن من التصرف الكامل .

وإما لأنها مانعة من تحصيل الحياة الأخروية .

وإما لميل النفس بها إلى الاعتقادات الرديئة .. ميل البدن المريض إلى الأشياء المضرة[2].

ومعنى : ﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ أي : كفرًا ونفاقًا .. مجاز كذلك جاء مشاكلاً للمجاز الأول .

وإسناد زيادة المرض إلى الله مجاز عقلي عند صاحب الكشاف ، وقد تقدم وجهه فيما سبق .

أما : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . ففي إسناد «الأليم» إلى ضمير العذاب مجاز عقلي عند الجميع ، حيث أسند الإسلام إلى ضمير العذاب ، ونظيره قول الشاعر :

وَخَيْلٍ قَدْ دَلَفْتُ لَهَا بِخَيْلٍ تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ

حيث أسند الوصف : «وجيع» إلى ضمير الضرب ، لأن الضرب سبب الإيجاع كما أن العذاب سبب الإيلام ، فالعلاقة فيهما السببية ، والقرينة حالية .

(١، ٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ٤٦٩ .

وقد استعار القرآن هذه المادة : «مرض» من دلالتها الوضعية إلى معان مجازية في إحدى عشرة آية هي :

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ (المائدة:٥٢) .

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾

(الأنفال:٤٩).

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ (التوبة:١٢٥).

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الحج:٥٣) .

﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ ﴾ (النور:٥٠) .

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (الأحزاب:١٢) .

﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ (الأحزاب:٣٢).

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ (الأحزاب:٦٠) .

﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ (محمد:٢٠).

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴾

(محمد:٢٩).

﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ﴾

(المدثر:٣١) .

● المرض .. حقيقة ومجازًا :

وهذه المواضع الأحد عشرة إذا أضفنا إليها الموضعين السابقين في آية البقرة يكون مجموعها ثلاثة عشر موضعًا ، استعمل القرآن فيها هذه الكلمة استعمالاً مجازيًا على طريق الاستعارة التصريحية التبعية ، وقد استعمل القرآن هذه المادة في معانيها اللغوية في المواضع الآتية :

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (الشعراء:٨٠) .. حكاية عن إبراهيم عليه السلام .

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ (التوبة:٩١) .

﴿ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ (الفتح:١٧) .

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ (البقرة:١٨٤).

﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ (البقرة:١٨٥).

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ ﴾ (البقرة:١٩٦).

﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ (النساء:٤٣).

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ ﴾ (النساء:١٠٢) .

﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ ﴾ (المائدة:٦).

﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ﴾ (المزمل:٢٠) .

● موازنة ضرورية :

وهذه هي مواضع استعمال المادة في معناها اللغوي ، إذ لا مجاز في واحد منها وقد ذكرتها تمهيدًا لإجراء موازنة بين الاستعمالين المجازي والحقيقي أراها ـ ضرورية في هذا المجال .

وهذه الموازنة تعتمد على الحقائق الآتية :

أولاً : أن القرآن يقصر استعمال هذه المادة استعمالاً مجازيًّا إذا كانت اسمًا ـ وإن شئت فتتَّبع مواضع استعمالها اسمًا حيث جاءت وصفًا للقلوب فلا تجد واحدًا منها خرج عن نطاق الإسمية .

وهو في استعماله لها استعمالاً مجازيًّا ما فارقت وصف القلب في أي موضع كذلك ، وقد جاءت جزءًا من صلة الموصول الإسمي «الذي» ولم تخرج عن هذه الحال إلا في موضع واحد هو آية «النور» : ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ ﴾ (النور:٥٠) ، وهي كذلك واردة في شأن المنافقين ، بدليل عطف «الكافرين» عليها في قوله تعالى : ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (المدثر:٣١) .. أما عطفه على «المنافقون» في مثل قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ (الأنفال:٤٩) فلا يبعد أن يكون عطف تفسير .

ثانيًا : أما استعمال القرآن لها في معانيها اللغوية فذلك مقصور على حالتين :

(أ) إذا كانت فعلاً ، وهي كذلك في موضع واحد ، وهو آية الشعراء حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (الشعراء:٨٠) .

(ب) إذا كانت وصفًا مشتقًّا ـ مفردًا كان أو مجموعًا ـ وهي في هذه الحالة لا ترد إلا في مقام التشريع وتيسير الأحكام .

والمتتبع لمواضعها التي أثبتناها ـ قبلاً ـ يجد المادة موزعة حسب المنهج الذي شرحناه .

وهذه سمة من سمات الأسلوب القرآني ودعامة من دعامات إعجازه مثيرة مدهشة ، فيها دقة وعمق نظر .

أما الدقة .. فلالتزام هذا المنهج الفريد وما كان هناك حَرَج لو خولف لا في واقع اللغة ولا في طبيعة الأسلوب .

وأما عمق النظر .. فللبحث عن سر هذا الالتزام وما روعي فيه من لطائف ودقائق يعز فهمها وتوجيهها .

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ۝ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

(البقرة: ١٤، ١٥) .

دعوى الإيمان من المنافقين غير رائجة ، أما نسبتهم الكفر إلى أنفسهم فرائجة ما في ذلك شك ، والخطاب في الشق الأول من الآية مع مؤمنين ينكرون كل الإنكار أن يؤمن أهل النفاق .

والخطاب في الشق الثاني منها موجَّه إلى شياطينهم ، وهم لا ينكرون أنهم معهم باقون على الكفر والنفاق .

● **مقتضى الظاهر ومخالفته :**

واختلاف المقام يقتضي المخالفة بين كيفيات الكلام فيهما ، والظاهر يقتضي أن يؤكدوا دعوى إيمانهم مع المؤمنين ، لأنهم منكرون لما يقولون شاكون فيه .

وألا يؤكدوا مع شياطينهم لأنهم مصدقون لهم لا يحتاجون إلى تأكيد ولكنَّا نرى الوضع هنا مختلفًا .

إلقاء الخطاب مجردًا من كل توكيد مع المؤمنين ومؤكدًا مع الشياطين والظاهر يقتضي العكس .

يرى السعد أن سر المخالفة في الموضعين : أنهم تركوا التوكيد مع خطاب المؤمنين ، لأن دعوى الإيمان لا تروج من المنافقين ، وهم يعلمون ذلك فأنفسهم ـ إذن ـ لم تساعدهم عليه .

أما توكيدهم له مع الشياطين فلأن هذا رائج منهم عند شياطينهم ، ولتوافر الرغبة فيه وكمال العناية به .

فالتوكيد وعدم التوكيد جار على مراعاة الحالة النفسية عند المتكلم لا المخاطب وهذه لفتة حسنة من لفتات السعد ، ومَن تبعه في هذا المذهب الجزل ، الذي هو وثيق الصلة بعلم النفس وأصول البلاغة الحية .

وقد جاء في خطابهم شياطينهم : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ ، ففسروا قولهم مع المؤمنين : « آمنا » بأنه ليس إلا استهزاء ، فكان الرد عليهم فيه قوة وتوكيد ، على غرار ما أثبتوه هم : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ فأكد ذلك بإسمية الجملة ، وبأن الله هو الذي يستهزئ بهم .

والاستهزاء من الله مجاز إذ لا يصح ذلك منه على وجه الحقيقة ، ولهذا فسَّروا هذه الآية بأن الله يجازيهم على الهزء .. ومعناه : أنه أمهلهم مدة ثم أخذهم مغامضة ، فسمى إمهاله إياهم استهزاءً من حيث انهم اغتروا به اغترارهم بالهزء فيكون ذلك كالاستدراج من حيث لا يعلمون[1] .

﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

مادة « مدَّ » تدور في المعاجم اللغوية حول معنى الزيادة والتكثير .. من مَدَّ الجيش وأمدَّه : إذا زاده بما يقويه ويكثره ، ويقال : مدَّه الشيطان في الغي والضلال وأمدَّه : إذا واصله بالوساوس حتى يتصل غيه ، ويزداد انهماكًا في المعاصي .

وإسناد المدَّ إلى الله مجاز عقلي عند الزمخشري .. لأن فاعل المد عنده هو الشيطان ، وأُسْنِدَ إلى الله لأنه سببه المُقدر عليه ، وقد علمنا فيما سبق وجهه عنده .

على أنه يجوز ـ عنده ـ أن يكون مجازًا عن عدم القسر والإلجاء وإن لم يُصرِّح هو بمجازيته[2].

---

(١) انظر : مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ٥٤٣ .

(٢) انظر : تفسير الكشاف للزمخشري : ١/٥٧١ .

وقد أنكر الزمخشري أن يراد به الإمهال ـ وهو رأي المفسِّرين ـ وحُجَّته أنه يعدي بنفسه إذا كان بمعنى الزيادة ـ كما في الآية ـ ويعدي بـ «اللام» إذا كان بمعنى الإمهال .. قال : «فإن قلتَ : ما حملهم ـ بعض المفسِّرين ـ على تفسير المد في الطغيان بالإمهال وموضوع اللغة ـ كما ذكرت ـ لا يطاوع عليه ؟ قلت : استجرهم إلى ذلك خوف الإقدام على أن يسندوا إلى الله ما أسندوا إلى الشيطان ، ولكن المعنى الصحيح ما طابقه اللفظ وشهد لصحته .. وإلا كان بمنزلة الأروى من النعام ، ومن حق مفسِّر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه ، والبلاغة على كمالها ، وما وقع به التحدي سليمًا من القادح ، فإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل»[1] .

● المعاني التي أفادتها «مَدَّ» في القرآن :

والناظر في مواضع «مد» في القرآن يخرج بالنتائج الآتية :

أولاً : أن هذه المادة يتجاذبها فيه جانبًا حقيقة ومجاز ، فالحقيقة في نحو قوله تعالى : ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الحج:١٥) إذ المراد بالسبب : الحبل ، والحبل يُمَد حقيقة .

وقوله تعالى : ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ (آل عمران:١٢٥) لأن الإمداد هنا بمعنى الزيادة وهو من معاني الكلمة في اللغة.

والمجاز في نحو قوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾(البقرة:١٥).

وقوله : ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ (مريم:٧٥) .

ثانيًا : إذا استعمل القرآن هذه المادة في المحبوب فالغالب فيها أن تكون من الإمداد ، قال : ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم ﴾ ، وقال : ﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ (الطور:٢٢) .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٥٢/١ .

أما إذا استعملها في المكروه فالغالب فيه أن تكون من المد ، قال : ﴿ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾ (مريم:٧٩)، وقال : ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ﴾ (الأعراف:٢٠٢).

ثالثًا : أن استعمالها في جانب الأرض والظل والمال .. يفيد معنى البسطة والتوسع تجوزًا ، فإن مد المال في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴾ (المدثر:١٢) في معرض الامتنان يشبه فيه المال على سبيل المجاز بشيء ممدود قد شغل جانبًا كبيرًا من المساحة لكثرته .

رابعًا : واستعمالها في جانب العين يفيد معنى الإطلاق والإرسال تجوزًا ، كذلك فإن معنى : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ (الحجر:٨٨) أي ترسل النظر وتطلقه إلى مظاهر النعيم عند الآخرين .

والذي أراه : أن جانب المجاز فيما أسند إلى الله من معاني يرى الزمخشري فيها أن الإسناد فيها جار على المجاز العقلي ، أو يذهب المفسرون إلى تفسيرها بالإمهال .. أن جانب المجاز في مثل هذه كقوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أن الله يمنع عنهم ألطافه ولا ييسر لهم سبل الهداية ، لأنه علم أنهم اختاروا الغي على الرشد .

ووجهه : أن يشبه منع أسباب الهداية عنهم بإمدادهم بوسائل الضلال والطغيان .. والجامع أن كلا من الأمرين ـ المنع والإمداد ـ يترتب عليه إغراقهم في الضلال ولوجهم فيه .

● **العَمَه .. العمى :**

و« العَمَه » مثل « العمى » ، إلا أن العمى يشمل فقد البصر ، وخطل الرأي ، بينما العَمَه خاص بضلال الرأي ومنه قولهم : سلك أرضًا عمهاء : أي لا منار فيها[1].

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري (بتصرف) .

وكذلك فرَّق الراغب بين العمى والعَمَه فقال : العَمَه : التردد في الأمر من التحير ؛ يقال : عمه وعامه ، والعمى يقال في افتقاد البصر والبصيرة ، ويقال في الأول : أعمى ، وفي الثاني : أعمى وعم[1] .

والمادة تدور حول الحجب والتغشية ، والمتتبع لمادة «عَمَه» في القرآن يجدها قد استعملت في معنى الضلال مطلقًا ، وذلك في المواضع الآتية :

﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (البقرة:١٥) .

﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الأنعام:١١٠) .

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الحجر:٧٢).

﴿ لَّلَجُّوا۟ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (المؤمنون:٧٥) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (النمل:٤).

تلك هي مواضع استعمال مادة «عَمَه» .. وليس المراد بها المعنى اللغوي الذي هو التردد والحيرة ، لأن هذا قد يكون وصفًا لبعض المؤمنين ، ولذلك أرى أن الكلمة هنا مراد بها أنهم سادرون في ضلالهم لا يفيقون منه ، ودليلي على ذلك القرآن نفسه حيث يقول : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .. فهم سكارى لا رُشد معهم ، ولا هدى ينير لهم الطريق .

● طريق المجاز فيهما :

إذا استقر ما ذهبتُ إليه فإن طريق التجوز فيه أنه من المجاز المرسل ، والعلاقة هي الإطلاق والتقييد ، فقد استعمل في مطلق ضلال بعد اختصاصه في اللغة بضلال التردد في الرأي والحيرة فيه .

أما مادة «عمي» فقد جاءت في القرآن حقيقة ومجازًا لغويًّا على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية أو التبعية التصريحية ، على أن في مواضعها موضعين قد دَقَّ تقدير المجاز فيهما .

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ٣٤٨ .

فتكون «حقيقة» إذا أريد بها معيَّن كقوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾(عبس:١،٢) لأن المراد بالأعمى هنا شخص معيَّن هو عبد الله ابن أم مكتوم كما جاء ذلك في كتب التفسير .

أو تكون في مجال التشريع كما في قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ (النور:٦١) ، (الفتح:١٧) .

وتكون «مجازًا» إذا استُعْمِلت في شأن الكفر والضلال ، والكافرين والضالين ، وقد مَرَّ بنا كثير من أمثلتها في فصل «التشبيه والتمثيل» ولنذكر ما لم نذكره هناك :

﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾ (الأنعام:١٠٤).

﴿ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ (المائدة:٧١) .

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ (محمد:٢٣).

والآيات لم تخرج عن طريق المجاز كذلك ، فقد شبَّه ضلال القلوب بعمى الأبصار ، والجامع أن كُلاًّ منهما يحول بين صاحبه وبين المنافع الشريفة ، ففي المجاز استعارة محسوس لمعقول لقصد الإيضاح والتقرير .

وفيما تقدَّم مواضع حملت على عمى البصر وعلى عمى البصيرة ، وضابطهما أن المفرد فيها «عم» والجمع : عمين أو عمون ، لأنه حينئذ من العَمَه الشامل لعمى البصر وعمى البصيرة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ (الأعراف:٦٤) .

● **صورتان دقيقتان :**

وقد ورد من هذه موضعان آخران هما : ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ (هود:٢٨) .

وقوله : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾

(القصص:٦٦).

قال الراغب في توجيه معنى الآيتين : «وعمى عليه : أي اشتبه حتى صار بالإضافة إليه كالأعمى قال : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ ، ﴿ وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ [1] .

وقال الزمخشري : «... ومعنى «عَمِيَتْ» : خفيت ، فإن قلتَ : ما حقيقته؟ قلتُ : حقيقته أن الحُجَّة كما جُعِلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء ، لأن الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره .. فمعنى : فعميت عليكم البيِّنة : لم تهدكم كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد» [2] .

وما ذكره الراغب والزمخشري ليس بمقنع ، بل إن ما ذكراه لا يخلو من مآخذ وهي ـ فيما ذكره الراغب ـ يسيرة ، لأنه قال : حتى صار بالإضافة إليه كالأعمى ، وهذا لا يحل الإشكال ، لأن القوم لم يبصروا الأنباء ، ولم يهتدوا إلى الرحمة ، فهم العُمْىُ وليست الأنباء أو الرحمة .

وما ذكره الزمخشري فيه مجافاة للأوْلَى ، لأنه فسَّر الرحمة بالنبوَّة ، ثم جعلها ـ أي النبوَّة ـ عمياء من حيث لم تهدهم كما لو ضَلَّ دليل قوم في مفازة بقوا بغير هاد ، وكما جُعِلت الحُجَّة بصيرة ومبصرة جُعِلت عمياء .

هذا مُحصَّل كلامه .. ولو كان الأمر كذلك لكان للقوم أكبر حُجَّة يتمسكون بها على البقاء على الكفر ، ما دامت حُجَّتهم عمياء .

● **محاولة لتوجيه المعنى في الموضعين :**

والذي أراه أن المسألة في الموضعين تُفهم على المجاز المرسل ، الذي علاقته الجزئية لأن القوم عُمْيٌ لا يبصرون شيئًا .. والحُجَّة أو الأنباء بعض أفراد ما لا يبصرونه ، فكما يقال : رعت الإبلُ الغيثَ ـ ويراد به النبات المتسبب عن الغيث يقال هنا على الأنباء إذا لم تُبْصَر بأنها عمياء .. لأنها جزء ما لا يبصره القوم .

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ٣٤٨-٣٤٩ .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري : ٣٤/٢ ، وما بعدها .

وأولى من هذا عندي أن يُقال إن في العبارة قلبًا على حد قول الشاعر :

* وَلا يَكُ مَوْقِف مِنَ الوَدَاعَا *

أما ما ذكره الراغب والزمخشري فلا يسلم من المآخذ كما رأينا ، وبعد هـذا يمكن أن يقال : إن هاتين المادتين «عَمَه» و«عمى» في القرآن مادتا مجاز .

● **الاشتراء والضلالة :**

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ (البقرة:١٦) .

عبَّر عنهم باسم الإشارة الموضوع للبعيد ، إشارة إلى بُعدهم عن الحق الـذي باعوه فكان في هذا التعبير براعة استهلال من أول مطلع .

و«الاشـتراء» افتعـال مـن الشـراء ، وهـو هنـا مسـتعار مـن معنـاه اللغـوي المعروف لاستبدالهم الضلالة بالهدى .

لأنه يفيد اختيارهم للضلالة على الهـدى ، والاسـتعارة فيـه تصـريحية تبعيـة لجريانها في المشتق .

ولعل السـر البلاغـي الـذي عـدل مـن أجلـه عـن أصـل التعـبير ـ الـذي هـو الاستبدال ـ لأن المشتري يكون راغبًا في الشيء المشترَى ، باذلاً للثمن فيه ، لأنه غير راغب فيه إذا قورن بما اشتراه .

هذا غرض ..

وغرض آخر : إن الشيء المشترى ملازم لمن اشتراه ، أما الثمن المبذول فيـه فمفارق له متى وقع البيع بين الطرفين صحيحًا .

وهؤلاء كانوا زاهدين في الهدى ، ولـذلك بـذلوه ثمنًـا فيمـا يحبونـه ـ وهـو الضلالة ، فبين هذا المجاز معانٍ وخفايا مستورة لم يكن للوقـوف عليهـا سـبيل لو عبَّر عنها بأسلوب الحقيقة اللغوية .

● استعمالات «شَرَى» وقانونها :

وهذه المادة ـ مادة «شَرَى» ـ وردت في القرآن خمسًا وعشرين مرة جاءت على صور المجاز في ثلاث وعشرين مرة منها ، وعلى المعنى الحقيقي في مرتين فحسب ، ولها في القرآن منهج وقانون ، فلنذكره مطبقين عليه بالأمثلة :

١- إذا خلت من تاء الافتعال كانت بمعنى «باع» ، وجاءت على هذه الصورة في أربعة مواضع ، ثلاثة منها على المعنى المجازي ، وواحد بالمعنى الحقيقي وهي على الترتيب :

﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:١٠٢).

﴿ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ (النساء:٧٤) .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة ٢٠٧) .

وهذه هي المواضع الثلاثة التي استُعْمِلت فيها المادة استعمالاً مجازيًا كما هو ظاهر من السياق .

أما الموضع الرابع .. فهو قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ (يوسف:٢٠).

«شروه» : باعوه ، فالاستعمال هنا حقيقي وليس مجازيًا .. لأن البيع وقع بمعناه المعروف .

٢- وإذا لم تخل من تاء الافتعال ، كانت بمعنى «الشراء» لا البيع ، إلا في موضع واحد جاءت فيه بمعنى «البيع» وسنشير إليه عند وروده ، وهي في هذه الحالة في جميع الصور مستعملة استعمالاً مجازيًا إلا في موضع واحد جاءت فيه على المعنى الحقيقي ، وهو قوله تعالى حكاية عن عزيز مصر : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ (يوسف:٢١) .

فالشراء هنا حقيقة وليس مجازًا ، وقد مضى إخبار القرآن عن إخوة يوسف ، وأن «شَرَوه» هناك بمعنى باعوه حقيقة لا مجازًا ، وكذلك فإن «اشترى» هنا من بين أخواته وقع بمعنى الشراء حقيقة لا مجازًا ، وهذه معادلة تدعو إلى الدهش والاستغراب .

● **المجاز اللغوي في «شَرَى» :**

أما مجيء المادة على المجاز اللغوي فيتمثل في العشرين موضعًا الآتية :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(التوبة:١١١) .

لما كان المجاهد يبذل نفسه في سبيل الله ويدفع بها إلى الأخطار ، والنفس أغلى شيء يمتلكه الإنسان والجود بها أسمى مراتب الجود .

ولما كان يبذل ماله مع روحه في سبيل الله ، وللمال عند الناس شأن عظيم ، والمجاهد يتحمل من المشقات في المرابطة والسهر ، وهجر المال والزوجة والولد مقبلاً على ربه ، حاملاً روحه في كفه .. فإن الله يثيبه على هذه الأعمال الجليلة أجرًا عظيمًا فليس له مأوى إلا الجنَّة .

فهنا نفس مبذولة ، ومال مبذول ، يقابلهما رضا الله وفضله لمن صحت نيِّته في الجهاد وأكرمه الله بالاستشهاد .

صوَّر القرآن هذه الحالة بما فيها من طرفين متقابلين بصورة البيع والشراء، فالمجاهد بائع نفسه وماله لله ، والله مشترٍ تلك النفس الطاهرة وذلك المال الزكي ، المؤمن المجاهد يقدِّم نفسه وماله عروضًا مبيعة ، والله ينعم بالرضوان والجنة ثمنًا مبذولاً .

وهذه عملية رابحة .. فالنفس لا شك ميتة ، والمال زائل أو مُفارَق ، أما الجنَّة فلا تُنال إلا لمن عمل لها كالمجاهدين ، فالتعبير يحتمل المجاز المركَّب ، وهو فيه أظهر ، كما يحتمل الإفراد ، وفي إسناد الشراء إلى الله إشعار

بضمان الثمن ووفرته ، وقد صرَّحت بهذا نفس الآية إذ جاء فيها : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة:١١١).

.. لا أحد .

وإذا أخذنا باعتبار أن المجاز فيها مفرد ، ففي «اشترى» استعارة تصريحية تبعية ، وقد مهَّدت ورشَّحت لاستعارة أخرى من جنسها وهي قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾ (التوبة:١١١) ... فاكتمل بذلك شطرا الحسن وإن هاتين الاستعارتين لتتعانقان ، فما دام الله مشتريًا لنفس ومال المجاهدين . فهم ـ إذن ـ بائعون ، فليستبشروا ببيعهم هذا .. ومَن أوفى بعهده من الله ؟

وتلك بقية المواضع : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ .

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (البقرة:٨٦).

﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا ﴾ (البقرة:٩٠).

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ (البقرة:١٠٢) .

والموضع الثالث هو الموضع الذي لم تخل فيه المادة من تاء الافتعال ، ودلت مع ذلك على البيع دون الشراء مخالفة بذلك سنن أخواتها حسبما ذكرنا آنفًا .

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ (البقرة:١٧٥).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ (آل عمران:١٧٧) .

﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ (آل عمران:١٨٧) .

﴿ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ﴾ (التوبة:٩) .

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ (البقرة:٤١)، (المائدة:٤٤) .

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ (النحل:٩٥).

﴿ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا ﴾ (المائدة:١٠٦).

﴿ لِيَشْتَرُوا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ (البقرة:٧٩).

﴿ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ (البقرة:١٧٤).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ ﴾ (آل عمران:٧٧).

﴿ وَٱشْتَرَوْا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (آل عمران:١٨٧) .

﴿ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ (آل عمران:١٩٩).

﴿ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ (النساء:٤٤).

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (لقمان:٦) .

وبهذا اكتملت مواضعها الخمسة والعشرون .

وقانون هذه المادة في القرآن يتلخص فيما يأتي :

أولاً : إذا خلت من تاء الافتعال كانت بمعنى «باع» واستعمالها حينئذ يأتي على طريق المجاز الاستعاري إلا في موضع واحد فإنها تكون فيه حقيقة وليست مجازًا ، وجملة هذا النوع أربعة مواضع .

ثانيًا : إذا لم تخل من تاء الافتعال كانت بمعنى «الشراء» المعروف واستعمالها حينئذ مجازي إلا في موضع واحد فإنها جاءت فيه على المعنى الحقيقي .

ثالثًا : أن هذه المادة يتجاذبها طرفا البيع والشراء ، والحقيقة والمجاز ، فهي بمعنى «البيع» في أربعة مواضع ، وبمعنى «الشراء» في بقية المواضع ، وهي بمعنى الحقيقة في موضعين وبمعنى المجاز في ثلاثة وعشرين موضعًا ، ولهذا يمكن أن نطلق عليها ـ في القرآن ـ أنها مادة مجاز .. لأنه الغالب على استعمالها .

رابعًا : إذا أريد استعمالها في جانب المدح جاءت منفية إلا في موضع واحد جاءت فيه مثبتة ، وهو : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة:١١١)

لأن شرف المعنى فيها كان من حيث إسناد الشراء إلى الله تعالى فأفادت كفالته بإثابة المجاهدين ، وتكون في هذه الحال حديثًا عن المؤمنين .

أما إذا أريد استعمالها في مواضع الذم فإنها تأتي مثبتة ولا تكون حينئذ إلا في سياق حديث عن الكافرين .

● التجارة والربح :

﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (البقرة:١٦).

تقدَّم أن القرآن سمى تمسك الكافرين بالضلالة : «شراء» على طريق الاستعارة التصريحية التبعية ، ولذلك ناسب أن يسمى عملهم هذا : «تجارة» ، ولما كان العرض المبيع «الهدى» ليس متعادلاً مع الثمن المبذول «الضلالة» كانت التجارة خاسرة .

وفي إطلاق معنى «التجارة» عليه مجاز استعاري أيضًا لكنها استعارة تصريحية أصلية لجريانها في غير المشتق .

وإسناد نفي الربح عنها مجاز عقلي حقيقته : فما ربحوا في تجارتهم ، وسره البلاغي أن إثبات الخسارة لتجارتهم مفيد لبطلانها أساسًا ، وإذا خسرت تجارتهم كانوا هم خاسرين من باب أولى .

فهذا المجاز حقق غرضين دفعة واحدة ، وفيه فوق ذلك تخييل لا تخفى عذوبته .

وإذا تأملنا صور المجاز في هذه الآية في مواطنه الثلاثة : «اشتروا» ، «ربحت» ، «تجارة» ثم الإسناد إلى ضميرها .. وجدنا المجاز فيها يتضام ويتعانق في ألفة وإخاء .

وللزمخشري إطراء رائع في هذا .. يقول فيه : «فإن قلتَ : هَبْ أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازًا في معنى الاستبدال ، فما معنى ذِكر الربح والتجارة ، كأن ثمة مبايعة على الحقيقة ؟ . قلتُ : هذا من الصنعة البديعية التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ، ثم تقفى

بأشكال لها وأخوات ، وإذا تلاحقن لم نر كلامًا أحسن منه ديباجة وأكثر ماءً ورونقًا وهو المجاز المرشح ، وذلك نحو قول العرب في البليد : كأن في أذني قلبه خطلاً ، وأن جعلوه كالحمار ، ثم رشحوا ذلك دومًا لتحقيق البلادة ، فادَّعوا لقلبه أذنين ، وادَّعوا لهما الخطل ليمثلوا البلادة تمثيلاً يلحقها ببلادة الحمار مشاهدة ومعاينة»[1] .

● **المجاز في «التجارة» عقلي :**

وقد أسند القرآن الحكيم أحداثًا للتجارة على سبيل المجاز العقلي في أربعة مواضع غير هذا الموضع ، واحد منها الإسناد فيه إلى صريح لفظها ، والثلاثة الأخرى الإسناد فيها إلى ضميرها ، وهي على الترتيب :

١- ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (النور:٣٧) .

٢- ﴿ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ﴾ (البقرة:٢٨٢) .

٣- ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ (فاطر:٢٩).

٤- ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الصف:١٠).

والنظر في هذه الآيات يكشف عن عدة أمور :

١- أن الإسناد في المثال الأول إلى صريح لفظ التجارة ، وفي الأربعة الأخرى إلى ضميرها ، وفي كُلٍّ الإسناد مجازي وسره المبالغة ، في تقرير المعنى وتأكيده .

٢- أن المواضع الخمسة ـ اثنين منها استعملت كلمة «التجارة» فيها في المعنى الحقيقي وهما آية النور ، وآية البقرة الثانية ، أما الثلاثة الباقية فإن «التجارة» فيها مجاز لغوي على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية ، وسره إبراز المعقول في صورة المحسوس .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٥٣/١ .

٣- أن المواضع الثلاثة التي استعملت فيها «التجارة» في المعنى المجازي تحتوي على مجازين في كل مثال : الاستعاري اللغوي الذي شرحناه ، والإسنادي العقلي الذي سبقت الإشارة إليه .

وعليه .. فإن استعمال هذه المادة في القرآن لم يخل من صور المجاز فهي إذن مادة مجاز فيه .

● **الكافرون واستيقاد النار :**

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

(البقرة:١٧،١٨).

المفسِّرون على أن هذا المثل ، والذي بعده بيان ـ معًا ـ لحال المنافقين ، وقد رأينا أن الدكتور محمد عبد الله دراز يجعل هذا المثل لبيان حال الكافرين ، والذي بعده لبيان حال المنافقين ، على طريقة اللف والنشر المرتب .. وقد جارينا الدكتور دراز في هذا التقسيم لسبب ذكره هو هناك[1] .. ولسبب آخر نذكره نحن وهو أن عرض القرآن لقصة الكافرين كان موجزًا إذ لم يتعد الآيتين ـ كما سبق آنفًا ـ أما عرضه لقصة المنافقين فقد كان مفصلاً إذا ما قيس بقصة الكافرين .

وهذا المثلان ـ كذلك ـ أولهما موجز بالقياس إلى ثانيهما ، وهذا يمكن الاستئناس به بل التمسك به عندما يقال إن المثل الأول وارد لبيان حال الكافرين .

وأيًا كان الخلاف فإن هذا لا يؤثر على جوهر الموضوع ، فلنأخذ في البيان :

«مثلهم» : أي قصتهم العجيبة الشأن ، ويرى الزمخشري أن المثل ـ هنا ـ مستعار استعارة الأسد للمقدام ، يريد بذلك الاستعارة التصريحية الأصلية

---

(١) النبأ العظيم ، الدكتور محمد عبد الله دراز .

للحالة أو القصة أو الصفة إذا كان لها شأن أو فيها غرابة كأنه قال : إن حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد نارًا [1].

وهذا التشبيه معقود بين صورة معقولة ـ وهي المشبه ـ وصورة محسوسة هي المشبَّه به ، والفائدة فيها عائدة على المشبه شأن كل تشبيهات القرآن ، ووجه الشبه هو الحيرة والشك والتخبط ، والتورط في الظلام .

وقد عبَّر القرآن في ثنايا هذا التشبيه بـ « الإضاءة » في حال الإثبات ، وبـ« النور » في حال النفي دون الإضاءة ، ليفيد الذهاب بكل ما حصل لهم من نور ، وإحلال الظلام محله ، ولو عبَّر بنفي الإضاءة لأفاد ذلك نفي الزيادة في النور مع بقاء أصل النور لأن « إضاءة » فرط النور .

وفي : « ذهب الله بنورهم » استعارة تمثيلية ، لأن الواقع أن لا نور حقيقة ولا ظلمات ، وفي إسناد الذهاب والترك إلى « الله » تسجيل عليهم بالضلال الذي ليس بعده هدى لأن الذاهب بالنور ، والتارك لهم في الظلمات ، هو الله الذي لا معطي لما منع ، ولا مانع لما أعطى .

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (النور: ٤٠).

● **بين التشبيه والاستعارة :**

أما قوله : ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ .

فالزمخشري يرى فيه وجهين : أن يكون تشبيهًا ـ وعليه المحققون ، أو يكون استعارة ، وهذا مختَلف فيه ، وجعله تشبيهًا أولى لذكر المشبه وهم المنافقون ، وهذا بناء على أن المحذوف ـ المنوى ذكره ـ كالمذكور[2].

« وهذا عند مفلقي البيان من باب التمثيل البليغ المؤسس على تناسي التشبيه »[3].

---

(١) انظر : تفسير الكشاف للزمخشري : ٥٣/١ .

(٢) المرجع السابق : ٥٧/١ .

(٣) تفسير أبي السعود : ٦٣/١ .

وهنا ظاهرة جديرة بالتسجيل هي أن المشبه في القرآن الكريم قد يكون محذوفًا مع حذف الوجه والأداة وبقاء المشبَّه به فحسب، ومع هذا يعتبر الأسلوب تشبيهًا، والبيانيون يسمون هذا «استعارة تصريحية أصلية»، والقول ببقاء التشبيه مع هذا الحذف لم يقولوا به خارج دائرة القرآن، والذي حملهم على ذلك قوة ملاحظة المحذوف، وهذه خاصة من خصائص التشبيه القرآني، تضاف إلى ما ذكرناه من خصائص في الفصل السابق.

وقد مهَّد القرآن لهذا الحكم بقوله تعالى: ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (البقرة:١٧،١٨).

● الكافرون .. والصيِّب:

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة:١٩،٢٠).

وهذان المثلان ـ فضلاً عما فيهما من دقة تصوير وإصابة مرمى ـ يشتملان على صور جزلة من المجاز اللغوي والعقلي، وضروب من التشبيه ازدان بها الأسلوب، وقوى المعنى، فقد قال: ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ (البقرة:١٧) ولم يقل: ذهب نورهم .. لأن الذهاب المجرد ليس مثل أن يذهب الله به.

فنحن نلمس الفرق بين أن يقال: شرب الخمر حتى ذهب عقله، وأن يقال: شرب الخمر حتى ذهبت الخمر بعقله.

فالعبارة الثانية أقوى من الأولى، لأن الخمر ذهبت بالعقل وانتبذت به مكانًا قصيًا، فهنا ذاهب ومذهوب به.

وكذلك: ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ أقوى من أن يقال: ذهب نورهم.

ومنه قولهم في المبالغة: ذهبت به الخيلاء، وذهب السلطان بماله.

● عبارة تنبئ عن إحساس نفسي :

وفي المثل الثاني صور من المجاز ترجمت عن مشاعر الخوف والقلق والحيرة عند المنافقين .

فهم لفرط فزعهم يجعلون أصابعهم في آذانهم ، وهذه لقطة مثيرة للانتباه في قصة هذا الفريق ، والواقع أنهم جعلوا أطراف أصابعهم في آذانهم لأن الآذان لا تتسع لجعل الأصابع فيها ، وطريق هذا التعبير هو المجاز المرسل ، وعلاقته هنا الكلية لأن أطراف الأصابع جزؤها .

والسر البلاغي فيه أن قصف الرعد قد أطار أحلامهم ، فأخذوا يتقونه بسد الأُذن حتى لا يسمعوه ، وهم إزاء هذا القصف لم يكتفوا بوضع أطراف الأصابع ، بل كانوا يحاولون غرزها كلها في كل آذانهم اجتهادًا منهم ألا يسمعوه ، وكان للصواعق المصاحبة للبرق والرعد أثر كبير في بلوغ خوفهم المدى ، ولم يكونوا يخافون خطرًا يسيرًا ، وإنما كانوا يخافون الموت .

وقد جاء هذا المجاز في موضع آخر من القرآن حكاية قول عن نوح يشكو قومه إلى ربه : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ (نوح:٧) .

بَيْدَ أن المقام مختلف ، فما في سورة البقرة كان المقام مقام خوف وفرار من الهلاك المتوقَع ، وقد بيَّن ذلك الخوف قوله تعالى : ﴿ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ .

والمقام في «نوح» مقام عناد ونفور عن سماع دعوة الحق ، وقد بيَّن هذا العناد والنفور قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾.

وفي قوله : ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ كناية عن صرف أبصارهم عنه حتى لا يبصروه ، فكما وضعوا أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوه ، جعلوا ثيابهم أغشية على أعينهم لئلا يبصروه ، وهو كناية عن صفة .

كما جعلوا أصابعهم في آذانهم كناية عن صرف أسماعهم عنه حتى لا يسمعوه وكان المجاز المرسل فيها من حيث إطلاق الأصابع على البعض ، وكذلك يمكن حمل الكناية الثانية على المجاز المرسل لأنهم استغشوا جزء ثيابهم لا كلها ، فقد اجتمع في هذين التعبيرين الكناية ـ وهي واسطة بين الحقيقة والمجاز ـ ثم المجاز المرسل .

● **إحاطة علم الله :**

﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:١٩) أي لا يفوتونه كما لا يفوت المُحَاط به المحيط ، وفي هذا التعبير مجاز قال العلامة أبو السعود : «شبه شمول قدرته تعالى لهم ، وانطواء ملكوته عليهم ، بإحاطة المحيط بما أحاط به في استحالة الفوت» .

وشبه الهيئة المنتزعة من شئونه تعالى معهم بالهيئة المنتزعة من أحوال المحيط مع المحاط .

فالمجاز هنا على ما بيَّنه العلامة أبو السعود محتمل الإفراد والتركيب ، صُوِّرَ فيه المعقول بالمحسوس لتقريره وسرعة تصوره .

وقد استعمل القرآن هذه المادة : «أحاط» مترددة بين الحقيقة والمجاز في صور شتَّى ، وجانب المجاز فيها أكثر من جانب الحقيقة ، وقد تشتمل بعض المواضع على مجازين لغوي وعقلي ، وتلك أمثلتها :

أولاً : الصور الحقيقية

(أ) ﴿ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(التوبة:٤٩) .

(ب) ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(العنكبوت:٥٤) .

(جـ) ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ (الكهف:٢٩).

هذه المواضع الثلاثة التي استخدم القرآن فيها مادة «أحاط» في معانيها اللغوية لا رابع لها ، لأن جهنم محيطة بالكافرين على الحقيقة ، وكذلك سرادقها .

ثانيًا : الصور المجازية

(أ) ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (البقرة:٨١) .

يقول الراغب في هذا المجاز : فذلك أبلغ استعارة ، وذلك أن الإنسان إذا ارتكب ذنبًا واستمر عليه استجره إلى ما هو أعظم منه فلا يزال يرتقي حتى يُطبع على قلبه فلا يمكنه أن يخرج عن تعاطيه .

(ب) ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ (البقرة:٢٥٥) .

(جـ) ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (آل عمران:١٢٠) .

(د) ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ (النساء:١٠٨) .

(هـ) ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴾ (النساء:١٢٦).

(و) ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (الأنفال:٤٧).

(ز) ﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ (يونس:٢٢).

(ح) ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ ﴾ (يونس:٣٩) .

(ط) ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ (هود:٨٤).

(ي) ﴿ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (هود:٩٢).

(ك) ﴿ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ (يوسف:٦٦) .

(ل) ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ (الإسراء:٦٠).

(م) ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا ﴾ (الكهف:٤٢) .

(ن) ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ (الكهف:٦٨) .

(س) ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ (الكهف:٩١) .

(ع) ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ (طه:١١٠) .

(ف) ﴿ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا ﴾ (النمل:٨٤).

(ص) ﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ (النمل:٢٢).

(ق) ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ (فصلت:٥٤) .

(ر) ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ (الفتح:٢١) .

(ش) ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (الطلاق:١٢).

(ت) ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ (الجن:٢٨) .

(ث) ﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ (البروج:٢٠) .

● صياغة القرآن لمادة « أحاط » :

تلك هي المواضع التي استخدم القرآن فيها مادة « أحاط » استعمالاً مجازيًا ، وقد بلغت خمسة وعشرين موضعًا باعتبار أن آية « النمل » فيها موضعان : « تحيطوا » ، و« لم تحط » ، وقد ترددت هذه الصور من حيث الصياغة بين الفعل الماضي والمضارع واسم الفاعل ، وهذا أكثرها إذ بلغت صوره عشرًا وكذلك الفعل الماضي ، أما المضارع فأقل الأنواع إذ لم تزد صوره عن سبع .

● المعاني الواردة فيها :

أما من حيث المعنى فإن هذه المادة قد استعملت ـ مجازًا ـ في الأغراض الآتية :

١- العلم ، وهو أكثر مواضع استعمالها مثل : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ ﴾ (البقرة:٢٥٥) .

ومثل : ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ (الكهف:٩١) .

ومثل : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (الطلاق:١٢) .

٢- القدرة مثل : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ﴾ (الإسراء:٦٠) .

ومثل : ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ (البروج:٢٠) .

ومثل : ﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ (يونس:٢٢) .

٣- المنع مثل : ﴿ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ (يوسف:٦٦).. أي إلا أن تمنعوا وتغلبوا[١] .

٤- الحفظ مثل : ﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ (يونس:٢٢) .. أي حافظ له من جميع جهاته[٢] .

٥- الحصر والشمول مثل : ﴿ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ (هود:٨٤) إذ هو من إحاطة العدو[٣] وهو صفة لليوم لا للعذاب ، والمراد : محيط بهلاكه وعذابه[٤] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ (الكهف:٤٢) .. أي أهلك كله .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري:٢/٣٧٩، مفردات القرآن ، الراغب الأصفهاني ص١٣٦.

(٢) تفسير مفردات القرآن ، الراغب الأصفهاني ص ١٣٦ ، وحفظ الشيء يقتضي العلم به فكان الأولى الحمل عليه .

(٣،٤) تفسير الكشاف للزمخشري : ٢/٣٢٦ .

قال الزمخشري : « وأحيط به : عبارة عن إهلاكه وأصله من : أحاط به العدو ، لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه ، ثم استعمل في كل إهلاك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ [1] .

قلت فيما سبق : إن بعض هذه المواضع قد يحوي مجازين : لغويًا وعقليًا .

وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ .. فقد أسند اسم الفاعل : « محيط » إلى ضمير اليوم ، وفاعل الإحاطة في الواقع هو الله تعالى ، إذن ففي هذا الإسناد مجاز عقلي علاقته الزمانية ، وسره البلاغي المبالغة في شدة هوله حتى كأن اليوم نفسه أصبحت له إرادة الهلاك والقصاص العادل منهم .

ومنه قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (البقرة: ٨١).

● مواضع الحقيقة والمجاز فيها :

ومن هذا كله نستنتج :

١- إن القرآن لم يستعمل هذه المادة في معانيها الحقيقية اللغوية إلا في سياق الحديث عن جهنم .

فإذا خرج الحديث عن جهنم فإن الاستعمال المجازي لازم لها في جميع صورها .

٢- إن المجاز يغلب على هذه المادة إذ جاء من أربع وعشرين صورة تقدم الحديث عنها ، أما الاستعمال الحقيقي فقد اقتصر على مواضع ثلاثة ، هي التي تحدثت عن جهنم وسرادقها .

ولذلك يمكن القول بأن مادة « أحاط » في القرآن مادة مجاز .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٢/٥٦٥ .

● **الكافرون والبرق :**

﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ (البقرة: ٢٠) .

تقدَّم مثلهم بـ «الصيِّب» الذي فيه ظلمات ورعد وبرق ، وكان من أثر الرعد مع الصواعق ـ المصاحبة له ـ أن جعلوا أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوه ، وهناك كان البرق بعد الرعد فجاء حديث القرآن هنا عن البرق ، وبعد أن بيَّن هناك أثر الرعد ، والبرق كان ساطعًا قويًّا حال دون أبصارهم ودون الإبصار بها ، لأنه طاقة هائلة من الضوء .

والضوء إذا كان قويًّا لم تستطع معه العين الرؤية .. يحدث هذا لو حلَّق أحد ببصره نحو قرص الشمس فإنه يكل بصره .

ولما كان البرق غير دائم الظهور وإنما هو يلمع ثم يختفي فيعود لامعًا ، كان المسند إليه : «يخطف» ، مناسبًا أيما مناسبة لظهوره السريع واختفائه الأسرع ، لأن الخاطف دأبه دائمًا أن يقفز فيخطف ثم يسرع مدبرًا .

ولا خطف هنا على الحقيقة ، ولذلك كانت : «يكاد» مفتاح تصور الحَدَث كما هو في الواقع ، نافية عنه كل مظنات الغلو البغيض .

والتعبير ـ بعد ـ من المجاز ؛ إذ هو استعارة تصريحية تبعية شبه فيها أثر البرق على أبصارهم من الضعف والكلال بـ «الخطف» ، والجامع ما يترتب على كل من إزالة ما يترتب على الشيء موجودًا ، والقرينة استحالة وقوع الخطف من البرق .

وإسناد الخطف إلى البرق مجاز عقلي علاقته السببية لأن المزيل الحقيقي لأبصارهم هو «الله» والبرق سبب .

وسره البلاغي في الموضعين : إبراز المعنوي في صورة المحسوس للإيضاح والتقرير ، هذا في تشبيه الإزالة بالخطف .. لأن الخطف يفيد نزع الأبصار نفسها من أماكنها وتركها بلا آلة بصر .

أما الإزالة فقد يقف معناها عند سلب الأثر وهو الإبصار دون آلته .

وفي المجاز العقلي صار البرق عدوًّا لهذا الفريق ، ذا إرادة وتدبير وتربص.. يتحين الفرص ثم يقفز في حركة سريعة وينزع أبصارهم من أماكنها ثم يولى، وأين لهم أن يطلبوه وهم لا يبصرونه ولا يعرفون طريقه ، هو في السماء وهم على الأرض !

● **منهج القرآن في مادة «خطف» :**

وقد ذكرت مادة «خطف» في القرآن على سبيل المجاز في الصور الآتية :

١- ﴿ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ ﴾ (الأنفال:٢٦).

٢- ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ (القصص:٥٧) .

٣- ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ ﴾ (الحج:٣١) .

٤- ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ (العنكبوت:٦٧) .

٥- ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ (الصافات:١٠) .

يقول الراغب في توجيه هذه الاستعمالات : الخطف والاختطاف : الاختلاس بالسرعة يقال : خَطَفَ ـ يَخْطِفُ ـ وخُطِفَ يُخْطَفُ .

يعني ﴿ وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ : أي يُقتلون ويُسلبون[1] .. وعلى هذا فإن المجاز ظاهر فيما عدا : «فتخطفه الطير» لأن الاستعمال الحقيقي هنا أقرب إلى التصوير لأن الطير يخطف الهاوي جزءًا جزءًا ، وعلى هذا أيضًا يمكن أن نقول :

أولاً : إن هذه المادة في القرآن الكريم يغلب عليها جانب المجاز إذ هو ظاهر في كل أمثلتها ـ ما عدا موضعًا واحدًا ـ فإن الحمل على المعنى الحقيقي فيه أقرب إلى التصور .

---

(١) مفردات القرآن ، الراغب الأصفهاني ص ١٠٥ .

ثانيًا : إن هذه المادة لم تستعمل فيه إلا في مقام الامتنان ، وذلك في موضعين :

أحدهما : ﴿ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ ﴾ (الأنفال:٢٦).

وثانيهما : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ (العنكبوت:٦٧) .

أو مقام الخوف والهلاك وذلك في بقية مواضعها :

﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ (البقرة:٢٠) .

﴿ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ (القصص:٥٧) .

﴿ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ ﴾ (الحج:٣١) .

﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ (الصافات:١٠) .

وعلى هذا ـ أيضًا ـ يمكن القول بأن هذه المادة في القرآن مادة مجاز .

وقد أسند القرآن إلى البرق في هذه الآية فعلين آخرين غير الخطف :

﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ﴾ (البقرة:٢٠).

والإسناد في كليهما مجازى علاقته السببية ، وفي الآية مقابلة بين ثلاث وثلاث : أضاء وأظلم ، لهم وعليهم ، مشوا وقاموا ، لأن المراد بـ « قاموا» وقفوا ولم يمشوا لشدة الظلام .

وقد عدى « أظلم» بـ « عليهم» لأن الإظلام مضر ، والإضاءة بـ « لهم» لأنها مفيدة ، فقرن كلا منهما بما يناسبه .

● ذهب وخطف :

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة:٢٠) .

﴿ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ ﴾ مجاز لغوي حقيقته : لأزال سمعهم وأبصارهم ، وسره البلاغي فوق إبراز المعقول في صورة المحسوس ، لتسجيل الشقاء عليهم واستمرارهم في تلك الخطوب الأليمة ، لأن الذهاب هنا فيه معنى الإمساك بالشيء المذهوب به ، وفيه معنى المصاحبة على حد قولهم : ذهب السلطان بماله ـ لأنه أبلغ من أذهب السلطان ماله ، ومن : ذهب ماله ـ لما في الصورة الأولى من الإمساك والاستصحاب وهذا المجاز صنو المجاز السابق : ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ (البقرة: ٢٠).. ولكننا إذا قارنا بينهما ظهرت لنا دقة التعبير في القرآن الكريم عجيبة عاجبة :

في جانب «البرق» كان اللفظ المستعار «الخطف» المفهوم من الفعل «يخطف» ، وفي جانب «الله» كان المستعار «الذهاب» المفهوم من الفعل «لذهب» والسر في اختلاف لفظي المستعار عجيب .

لأن مفهوم الخطف أن يكون هناك تربص وترقب للفرصة ، فإذا ما سنحت كانت الحركة السريعة في الانقضاض للخطف ، ولا بد للخاطف من التولي السريع ناجيًا بنفسه وبما خطف ، والخاطف خائف وجل .

أما الذهاب في : «لذهب» فلا يقتضي شيئًا من ذلك ، فالآخذ الذاهب قد يكون أخذه على سبيل القوة والاستعلاء ـ كما هنا ـ فلا تربص ولا ترقب ، ولا تَحيُّن فرصة ولا انقضاض ولا فرار خشية اللحاق ولا طلب يُتوقع من المأخوذ منه لأن الآخذ قادر قوي ، والمأخوذ منه عاجز ضعيف ، ولأنه لا حَوْل له ولا قوة يعصمانه من حَوْل وقوة الله .

لهذه الاعتبارات ـ والله أعلم ـ كان اختلاف لفظي المجاز كل واقع موقعه لا نابٍ ولا مستكره ولا وقوع في مخالفة حس أو شرع .

وهذه خاصة من خصائص التعبير القرآني ، تنتظم الأسلوب كله من «الحمد» في افتتاح فاتحة الكتاب ... إلى «الناس» في اختتام خاتمته .

* * *